

النقطة الثانية من النقاط الثلاثة البارزة في « الأسرار » محاولته كشف الأسس العامة التي تقوم عليها بلاغة التشبيه ، وأسرار قيمته وتأثيره في النفس . وعلى الرغم من أن كلامه في هذا الموضوع - كما هو منهجه في العرض - يتسم بالاستطراد والتداخل فإنه يمكن استخلاص عدة أسس تستند إليها بلاغة التشبيه في رأيه ، منها أن تشخيص المعاني وتجسيد المشاعر والخواطر يكسبها قوة ، ويضاعف من تأثيرها في النفس ، وعبدالقاهر ينطلق في ذلك من حقيقة مؤداها أن المعرفة الحسية أسبق من المعرفة العقلية ، فالأولى وسيلتها الحواس ، وهي تؤدي مهمتها في اكتساب المعرفة والإحاطة بالمدرجات الحسية منذ وقت مبكر في حياة الإنسان على حين تتأخر معرفته العقلية عن ذلك إلى أن ينضج ذهنه ويتهيأ عقله لإدراك المعنويات والمجردات ؛ ومن ثم فعالم الحس أمس بالنفس رحما ، وأقدم لها صحبة ، فإذا قدمت إليها المعاني والأفكار المدركة بالعقل ، ثم نقلتها بعد ذلك إلى ما يماثل تلك المعاني والأفكار من مدرجات الحواس ، فأنت كمن يتوسل إليها للغريب بالحميم ، وللجديد الصحبة بالحبيب القديم - وما أشبهك حينئذ بمن يخبر عن شيء من وراء حجاب ، ثم يكشف عنه الحجاب ويقول : ها هو ذا فأبصره تجده على ما وصفت (١٥٩) . ويؤكد عبدالقاهر رأيه هذا بالمقارنة بين تقديم بعض المعاني مجردة وتقديمها في صورة حسية شاخصة للعيان بأسلوب التمثيل أو تشبيه التمثيل . ففرق - مثلا - بين أن تقول : « إن الذي يعظ ولا يتعظ يضرب نفسه من حيث ينفع غيره » وتقتصر على ذلك ، وبين أن تذكر المثل فيه على ما جاء في الخبر من أن النبي ﷺ قال : « مثل الذي يُعَلِّمُ الخير ، ولا يعمل به مثل السراج الذي يضيء للناس ويحرق نفسه » ، وفرق كذلك بين قولك للرجل وأنت تعظه « إنك لا تجزى على السيئة حسنة فلا تغر نفسك » وتمسك . وبين أن تقول في أثره : « إنك لا تجنبي من الشوك العنب وإنما تحصد ما تزرع » وأشبه ذلك (١٦٠) .

أساس آخر لبلاغة التشبيه عند عبدالقاهر ، هو أن تمثيل المعاني بإبرازها في صورة مشبه به حسي يضيف عليها في كثير من الأحيان ضربا من الخفاء يتطلب

(١٥٩) انظر أسرار البلاغة ص ٩٥ ، ٩٦ ، وانظر أيضا كتابي التعبير البياني ص ٦٠ .

(١٦٠) انظر أسرار البلاغة ص ٩٤ .